الصيام في العهد الجديد

الأب أيّوب شهوان

مدير معهد الليتورجيّا

١١ نيسان ٢٠٠٥

مقدّمة

يحتلّ الصليب الموقع الأبهى في حياة المؤمن، لأنه، بعد أن كان علامة الهوان والذل والخزي، أضحى علّة ارتفاع وارتقاء وسمو بالمجد مع ذاك الذي عُلِّق عليه، ثم «رُفِع بالمجد، ووُهِب الاسم الذي يفوق كل اسم...، ليعترف كلّ لسان أن يسوع هو الربّ» (فل ٢: ٥-١١). لقد صار لدى المؤمن توقٌ، كما لدى بولس، لأن «يتمّم في جسده ما نقص من آلام المسيح» (قول ١: ٢٤)، وكأنّ في الصليب جاذبيةً تخلب العقول، وشغفًا يملأ القلوب، وحكمةً تعطي النور بفيضٍ كما عند مولد يسوع وكما عند قيامته.

أ- الصليب[١]، تعذيب مهين وذروة العار

إذا كان الفُرْس قد استنبطوا الصليب كأداة لتنفيذ حكم الموت المبرم في مَن كانوا يُعتَبَرون مجرمين[٢]، وإذا كان الصليب يشكّل جزءًا من الترسانة القمعيّة للعدالة الرومانيّة[٣] إلى جانب الغلّ (طوق حديدي في رقبة الجاني)، والخازوق والمشنقة، فإنّ «الصليب عندنا، نحن الذين نلنا الخلاص، هو قدرة الله» (١ قور ١: ١٨).

في إحدى مرافعاته يتكلم شيشرون (حوالى سنة ٧١ ق. م.) عن الصلب على

١- الصلب هو فعلُ تسمير أو ربط ضحيّة ما حيّة، كما في فارس وعند الرومان، أو أحيانًا شخص ميتٍ، كما عند اليهود، على الصليب (σταυρος أو σκολοπος) أو شجرة (ξυλον). بشكلٍ عام، يستعمل هيرودوتوس الفعل ανασκολοπιζειν للأجساد. من بعده، أصبح الفعلان σταυρουν وανασκολοπιζειν مرادفَين، ويعنيان «صَلَبَ». يستعمل يوسيفوس ανασκολοπιζειν (ανα) فقط، وفيلون σταυρουν فقط. يرد الفعل σταυρουν كثيرًا في العهد الجديد الذي يستعمل دائمًا الإسم σταυρος، ولا يستعمل قط الاسمَ للدلالة على صليب المسيح (راجع:

Gerald G. O'COLLINS, «Crucifixion», *Anchor Bible Dictionary*, vol. 1, A-C. (Doubleday: NY 1992) 1207-1210. *TDNT* 7: 572-584.

٢- سامي حلاّق، **الصليب والصلب قبل الميلاد وبعده** (بيروت، ١٩٩٥) ٧.

٣- أنظر المؤلّف الكلاسيكي الذي يبقى الأهمّ في ما يتعلّق بالناحية القضائية للصلب:

Th. MOMMSEN, *Crucifixion in the Ancient World and the Folly of the Message of the Cross* (London 1977).

أنه «التعذيب الأكثر وحشية والأكثر إهانة الذي ينـــزل بالعبيد». استنادًا إلى فلافيوس يوسيفوس، كان الصلب يُستعمل أيضًا ضد قطّاع الطُرُق، الذين يثيرون القلاقل، ويحرّضون على ثورة.

تدل كلمة «صليب»[٤] أساسًا على الآلة وعلى الطريقة القاسيتَين جدًّا المستعملتَين في تنفيذ حكم الإعدام في العهود الرومانية القديمة في مجرمي الحقّ العام، خاصة العبيد وغير الرومان. يحمل المحكوم عليه بالموت عارضةً خشبية، ويسير، تحت ضرب السياط وعلى وقع الاستهزاء، نحو مكان تنفيذ الحكم خارج المدينة. يُترَك المُعَلَّق يعاني وينازع ساعات طويلة. لقد نظر العديد من كتّاب[٥] تلك الحقبات إلى الصلب على أنه أداة إعدام بربريّة، ليس فقط بحدّ ذاته، بل أيضًا بسبب التعذيب الرهيب الذي يسبق الصلْب جلدًا واستهزاءً، والعذاب الذي يعجز المرء عن وصفه عندما يكونُ المحكومُ على الصليب.

استنادًا إلى القانون الروماني، عندما يصدر الحكم، يُجْلَدُ المحكومُ أوّلاً (بأعصاب بقر، أو بسيورة من الجلد، أو بحبال في أطرافها حديد أو عظام) بهدف إضعافه. وبعد تعريته من ثيابه، يُلقى على منكبَيه إمّا عودٌ أفقيّ، وإما الصليبُ كاملاً، فيعبر المدينة، سالكًا الشوارع الأكثر ارتيادًا، ترافقُه صيحاتُ الجماهير، وضرباتُ الجنود. يخرج من المدينة، وهناك، في مكان مرئيّ (مفترق طرق أو قمّة)، يُثَبَّتُ المحكوم بحبال أو بمسامير على الصليب، ويُرفَع الصليب، إلا إذا جُمع العود الأفقي إلى العود العامودي الذي يكون قد غُرز في الأرض. ثم يُعلّق «العنوان»، وهي لوحةٌ تدلّ على هويّة المحكوم وعلى سببِ إعدامِه. قد يطول لفظُ الأنفاسِ

٤- كارل راهنر وهربرت فورغريملر (تعريب المطران عبده خليفة)، **معجم اللاهوت الكاثوليكي** (دار المشرق: بيروت، ١٩٨٥) ١٨٩.

Gerald G. O'COLLINS, «Crucifixion», p. 1207-1210.

هناك مصطلحات مرتبطة بموضوع الصلب، يستعملها يوسيفوس في مؤلفاته، هي التالية:
proseloun, stauro", stauroun;

وهناك أخرى أقل استعمالاً، هي التالية:
stauro" et anartaw, anaskolopizw, anastsaurow, kremannumi, proshlow, sani", staurow.

٥- نورد على سبيل المثال أسماء: هيرودوتس، بلوترخس، تاسيتوس، يوسيفوس...

عدّةَ ساعات، لذا يُعطَى المحكوم أحيانًا خلاًّ ومرًّا لتخفيف الألم؛ ونشير هنا إلى أنه، بسبب احتياج الجندي إلى قصبة كي يوصل الإسفنجة إلى فم يسوع، يُستَنتَج أن صليب يسوع كان عاليًا. ويرمي كَسرُ ساقَي المحكوم إلى تقصير مدّة النـــزاع. وكانت الجثثُ تبقى في كلّ المناطق معلّقةً حتى تنحلّ، باستثناء منطقة اليهوديّة حيث كان المصلوبُ يُنـــزَلُ ويُدفَن.

استنادًا إلى سينيك (Sénèque، نهاية القرن الأول)، لم تكن الصلبان كلُّها من النوع ذاته. هل كان صليبُ يسوع بشكل حرف T اللاتيني، أم كانت له أربعةُ فروع؟ هل حُمِّل يسوعُ العود الأفقي الذي حمله سمعان القيرواني بدلاً عنه أم لا؟ هل سُمِّرَ على الصليب (وفي هذه الحالة ليس في كفي يديه بل في المعصمين، في عظام المعصم)؟ لا تفيد الروايات الإنجيليّة شيئًا حول هذا الأمر، بل تكتفي بالقول وباقتضابٍ: «وصلبوه».

كتب أوريجانوس، في شرحه لنصّ متّى ٢٧: ٢٢ي، ما يلي: «الموت على الصليب هو ذروة العار»[٦]. هذه الكلمات هي صدى لما سبق وكتبه تاسيت[٧].

ب- الصلب عند اليهود

يتكلم بولس في ١قور ١: ٢٣ على «جنون» (mwria) الصليب بالنسبة إلى «الوثنيين». إن «عثار الصليب» (skandalon tou staurou)، الذي عانى منه اليهود (رج ١ قور ١: ٢٣، وغل ٥: ١١)، هو ذات طابع دينيّ مبنيّ على ما ورد في تث ٢١: ٢٢-٢٣: «إذا وجدتم على أحد جريمة تستوجب القتل، فقُتِل وعُلِّق على خشبة، فلا تتركوا جثّتَه إلى اليوم الثاني، بل في ذلك اليوم تدفنونه، لأنّ المعلّق ملعون من الله». وانطلاقًا من نصوص **دَرْجِ الهيكل**، الذي وُجد في قمران، تبيّن أنّه، إبّان المرحلة الحشمونيّة، في العصر الهلّيني، كان الصلْب يُمارَس كعقاب موت

٦- KLOSTERMANN, *Die griechischen christlischen Schriftsteller der ersten 3 Jahrhunderte* (= GCS) 38, Berlin, p. 259.

٧- Cf. J. SCHNEIDER, *ThWNT* VII, 1971, p. 573, n. 15.

على جريمة خيانة عظمى، علمًا أنّ اليهود أخذوه من العالم المحيط بهم؛ توازي هذه العادة التعليق على الشجرة الذي كان يُطبّق في روما في حالات «الخيانة» العظمى. فكلّ مَن كان يخون شعبه لصالح عدوٍّ أجنبيّ، كان يُطبَّق عليه عقاب الإذلال الأقسى. هذا يُفسِّر صلبَ ثماني مائة يهوديّ، يُرَجَّح أنهم كانوا فرّيسيّين على يد إسكندر يَنَّايُوس[٨].

مارس الرومان الصلبَ بكثافة، بهدف فرض السلام في اليهوديّة، فصلب فاروسُ الرومانيُّ، مثلاً، ألفَي سجين في أورشليم؛ وكانت سنة سبعين ب.م. ذروةَ الرعب في هذا المجال. وبدءًا من هيمنة الرومان المباشرة على اليهود في فلسطين، أُلغيَ الصلبُ بالفعل ذاته كعقاب يهوديّ، لأنه صار محصورًا بالمحتلّين الجدد. كذلك، لم يعتمدْ اليهودُ الصليبَ أبدًا رمزًا لآلامهم، لأن تأثير تث ٢١: ٢٢-٢٣ كان يتعارض بشكل حازم مع ذلك، ولا أُضفِيَ عليه البُعْدُ الخلاصيّ. لذلك، لم يكن ممكنًا أن يقبلوا مسيحًا مصلوبًا. هنا كان يكمن «العِثار» الخاصّ في البشارة المسيحية الأولى على أرض الوطن الأمّ بالذات.

بدءًا من القرن الرابع ب.م. فقط، وفي تقليد أمورّائيّ متأخر، نجد كلامًا على صلب شهودِ إيمانٍ من أصل يهوديّ. حتى في هذا الإطار يحتلّ الصلبُ المكانَ الأوّلَ بين العذابات الأقسى.

ج- تفاصيل محدودة في رواية صلب يسوع

لا تنقل أيٌّ من الروايات وقائعَ صَلْبِ يسوعَ في قسوتها، بل يقترحُ كلٌّ واحدٍ طُرُقًا لفهمِ معناها. لنأخذْ مثلاً صغيرًا، هو خبرُ الوصولِ إلى الجلجلة، كما يرويه متّى ٢٧:٣٣-٣٥، فلا نجد تفاصيل يتمنّى القارئ أن يعرفها. كذلك، ليس لدينا أيّ تفصيل عن العُود الأفقيّ من الصليب، ولا عن جَمْعِهِ إلى العود العامويّ، ولا عن إيقافِ الصليب، ولا عن المسامير، ولا عن الحبال، ولا عن الدم، ولا وجود أو

٨- يوسيفوس، **الحرب اليهوديّة**، ١: ٩٧ي؛ **العتيقات اليهوديّة**، ١٣: ٣٨٠-٣٨٣.

عدم وجود جمهور، إلخ. أكثر من ذلك، الوقائعُ المنتقاةُ، أي الوصول، ورفض شرب الخل، والصَّلب، وكلمات قليلة فقط، مقابل مجموعةِ أفعالٍ تِقَنِيَّة وعنيفة، هي وقائع مرتبطةٌ بما يبدو أنه تفاصيل: الخمرُ الممزوجُ بالمُرّ، والثيابُ المُقتَرَعُ عليها... هذه التفاصيل هي، على ما يبدو، تاريخيّة. نعلم، مثلاً، أنه كان يُعطَى للمُساقين إلى التعذيب خمرٌ ممزوجٌ بالمُرّ، ولهذا الشرابِ مفعولٌ مُخَدِّر (أنظر، مثلاً، مر ١٥:٢٣). فمتّى يتكلّم على خمر «ممزوج بِمُرّ» (مت ٢٧: ٣٤، ٤٨؛ رج مر ١٥: ٣٦؛ يو ١٩: ٢٨-٢٩)؛ المقصودُ هو تلميح إلى مز ٦٩:٢٢: «جعلوا في طعامي علقمًا، وفي عطشي سقوني خلاًّ». أمَّا ما يتعلق بالاقتراع على الثياب (مت ٢٧: ٣٥؛ رج مر ١٥: ٢٤؛ لو ٢٣: ٣٤؛ يو ١٩: ٢٤)، فهو صدى لمزمور ٢٢:١٩: «يقتسمون ثيابي بينهم، وعلى لباسي يقترعون». عند وَضْعِ هذه الكلماتِ في إطارها الأصليّ، نتبيّن أنها تَصِفُ إيمانَ رجلٍ مُضطَّهَدٍ يُعَبِّرُ لله عن ثقتِه.

د- صَلْبُ يسوع في قلب البشارة

لم يؤدِّ موتُ أيِّ إنسانٍ صلبًا إلى تأثيرٍ كالذي تركه يسوع على العالم القديم وعلى تاريخ البشرية، هو الذي كان يجولُ مبشِّرًا و«مرّ يصنع الخير» (أع ١٠: ٣٨)، والذي صُلب كمثير للشغب، سنة ٣٠ ب. م.، أمام أبواب أورشليم. خلال الستّين سنة التي مرّت على تحويل اليهوديّة إلى مقاطعة رومانية، وحتى بداية الحرب اليهوديّة، حكم الرومان على مئات وقد يكون على ألوف من الرجال بالصلب؛ كلّهم سقطوا في النسيان باستثناء بعض الأسماء التي حفظها المؤرّخ اليهوديّ يوسيفوس. أن يكون هذا الجليليُّ دون سواه لم يتعرّض للنسيان، لا بل أن يكون موته حصرًا قد ترك تأثيرًا فريدًا، وملأ اسمه أرجاء المعمورة، فهذا عائد إلى التفسير الذي أُعطِي لموته الذي كان في أساس الإيمان المسيحي. السؤال الجوهريّ الذي يُطرَح هو إذًا التالي: كيف بشّر الرسل والتلاميذ بمعلّمهم الذي قُتِل بهذه الطريقة الوحشيّة والمأساوية، وكيف استطاعوا أن يكتشفوا قيمة حدث موت الرب الفائقة بالنسبة إلى الخلاص؟ وبتعبير آخر، كيف حصل صلب يسوع على الموقع المركزي

في البشارة المسيحية الأولى؟ أضف إلى ذلك أمرًا معبِّرًا جدًّا في هذا السياق، ألا وهو المخزون الليتورجي الضخم الذي يتمحور حول الصليب المقدس؛ نورد على سبيل المثال لا الحصر **ألحان الصليب** في الطقس الماروني التي ترقى إلى ما قبل القرن الثاني عشر[٩]، وصلاة عيد ارتفاع الصليب في الطقس عينه[١٠]، بالإضافة إلى العبادات التقوية الكثيرة، مثل «درب الصليب»[١١] وغيرها.

منذ صلب يسوع، أضحى الصليب علامة الحياة المسيحية المتطابقة مع حياته (رج مت ١٠: ٣٨؛ ١٦: ٤؛ روم ٦: ١)، وعلامة فداء البشرية، إذ عليه قاسى يسوع الآلام حتى الموت بالطريقة الأكثر إذلالاً (فل ٢: ٨؛ عب ١١: ٢٦؛ ١٢: ٢؛ ١٣: ١٣). إنّ «البشارة بالصليب» هي «قدرة الله» (١ قور ١: ١٨) لمن يؤمن. وبما أن يسوع المسيح قد تـــمّم فداء البشرية بموته على الصليب، تحوّل الصليب منذئذ من أداة تعذيب وإهلاك وموت إلى أداة فداء وخلاص وحياة: «من لا يأخذ صليبه ويتبعني، فليس أهلاً لي» (مت ١٠: ٣٨؛ مر ٨: ٣٤؛ لو ٩: ٢٣)؛ «مَن أراد السير ورائي، فليرغب عن ذاته، ويحمل صليبه ويتبعني. فمَن أراد أن ينجو بنفسه يفقدها، ومَن فقد نفسه في سبيلي يجدها» (مت ١٦: ٢٤-٢٥). لذلك يحتلّ «تَحَمُّلُ الصليب» (uJpomevnein staurovn) موقعًا هامًّا في التزام المسيحي، كما تعبّر عن ذلك الرسالة إلى العبرانيين: «ولنتطلّع إلى رائد الإيمان ومكمّلِه يسوع المسيح الذي احتمل الصليب بدل الفرح المعدّ له» (١٢:٢).

٩- يوحنا تابت، **البيت غازو الماروني**، الجزء السادس، **ألحان للصليب** (منشورات معهد الليتورجيا في جامعة الروح القدس، الكسليك، لبنان، ٢٠٠٥).

١٠- «**عيد الصليب**»، **في الشحيمة، الزمن العادي** (منشورات معهد الليتورجيا والعلوم الموسيقية، جامعة الروح القدس، الكسليك، لبنان، ١٩٨٢) ١١٧*-١٥٣*، بالإضافة إلى قراءات المناسبة، ٥١٠*-٥٧٤* خاصة.

١١- أنظر مثلاً: بولس الفغالي، **درب الصليب درب القيامة** (القراءة الربية ١٨، **الرابطة الكتابية**، لبنان، ٢٠٠٥).

هـ- شكّ الصليب

بدا صليب يسوع «جهالة» أو حتّى «جنونًا» في نظر الأمم، و«شكًّا» لليهود (١ قور ١: ٢٣؛ غل ٥: ١١). فبالصليب صار يسوع «لعنةً من أجلنا» (غل ٣: ١٣؛ رج تث ٢١: ٢٣). لقد لَزِمَ المسيحيين سنوات عدة ليُعلنوا، وبدون انزعاج، إيمانَهم بـ«مسيحٍ مصلوب»، ولَزِمَ انتظار قسطنطين لإزالةِ عقاب الصَلْبِ، حوالى سنةِ ٣٢٠، قبل أن يجرؤوا على إبرازه دون نفور أو اشمئزاز ممّا كان يمثّله.

تُفسِحُ رسائلُ بولس المجالَ لمعرفة مضمون الإيمان المسيحيّ خلالَ السنواتِ ٤٠-٦٠، والمناقشاتِ التي ترتبط به. بلغ الرسول في كلامه حدَّ اللجوءِ إلى «البشارة» حسبَ الصياغاتِ التي صَقَلَها الاستعمال: «مات عن الخطايا» (١قور ١٥:٣)؛ «أسلم ذاتَه عن خطايانا» (غل ١:٤). نادرًا ما نجد صيغةً كتلك التي أدرجها بولس في رسالته إلى أهل فيليبي حيث كتب: «إذ تصرّف كإنسان، تواضع أكثر أيضًا، طائعًا حتى الموت، الموت على الصليب!» (فل ٢:٦-١١). خمس عشرة سنة مرّت على الأحداث، تأكّد بعدها أنّ صلب المسيح قد يكون عائقًا في وجه التبشير بخلاص الله، إذ بدا أنه «عثار[١٢] لليهود»، و«جهالة[١٣] للأمم» (١ قور ١: ٢٣).

١- الصليب في الأناجيل

مجريات الأمور

تذكر الأناجيل الأربعة أن يسوع أنبأ بموته (مت ٢٠: ١٧-١٩؛ مر ١٠: ٣٢-٣٤؛ لو ١٨: ٣١-٣٤؛ يو ١١: ٢٠-٣٣). ويوضح متّى أنّ هذا الموت

١٢- في العثرة يقول بولس في روم ٩: ٣١-٣٣: «أمّا إسرائيل الذي سعى إلى شريعة برّ، فما بلغ تلك الشريعة...، فعثروا بحجر العثرة، كما كُتِب: ها إني واضعٌ في صهيون حجر عثرة...»؛ ويقول أش ٨: ١٤: «أنا القدوس أكون حجر عثرة لبيتي إسرائيل...، فيعثر كثيرون...».

G. BILLON, «Le scandale de la croix», www.bible-service.net

١٣- «ليس لإنسان نفساني أن يتقبّل ما هو من روح الله، لأنّ ذلك عنده جهالة» (١ قور ٢: ١٤).

كان صلبًا[١٤] (مت ٢٠:١٩؛ ٢٦:٢)، وأنّ بعض أتباع يسوع قد يلقون المصير ذاته (متّى ٢٣:٣٤).

يجري الكلام على صلب يسوع في مت ٢٧؛ مر ١٥؛ لو ٢٣؛ يو ١٩، ويُشار إلى ذلك غالبًا في أماكن أخرى في العهد الجديد (مثلاً: أع ٢:٣٦؛ ٤:١٠؛ ١ قور ٢:٨؛ غل ٣:١؛ رؤ ١١:٨). استنادًا إلى الإزائيين، أُرغم سمعان القيرواني على حمل صليب يسوع. حصلَ الصَلْبُ على الجلجلة أو «مكان الجمجمة». يبدو أنّ يسوع قد سُمّر على الصليب بيديه (لو ٢٤:٣٩؛ يو ٢٠:٢٥) ورجليه (لو ٢٤:٣٩)، وصُلب لصّان من هنا وهناك. على صليب يسوع عُلِّقَت علامة تقول: «ملك اليهود»، وتدلّ على الجريمة التي بسببها تمّ إعدامه. رفض يسوع الخلَّ الذي قُدِّم إليه ليخفّف آلامه[١٥].

بينما كان بعض المارّة يعيّرون يسوع، كان هو يستعين بكلمات المزمور ٢٢ الافتتاحيّة لكي يصرخ: «إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟»، وأسلم الروح حوالى الساعة الثالثة من بعد الظهر، وقد سرّع موتَه الجلدُ القاسي الذي كان قد عاناه قبلَ ساعات قليلة. وبإذن من بيلاطس البنطي، أنزل يوسفُ الرامي جثمانَ يسوع عن الصليب وأمّن له دفنًا لائقًا.

من دون شك، أدخل التفكيرُ التقويُّ بموت يسوع، والرغبةُ في إيجاد أقوالٍ نبويّة حوله، بعضَ التفاصيل في روايات الآلام. على الرغم من ذلك، الرواية التي أوردنا أعلاه هي بالتّأكيد رواية تاريخية حول صلبه.

غالبًا ما لجأ الرومان إلى الإعدام صلبًا – وهذا أمرٌ مخزٍ وعنيفٌ – بهدف تدعيم السلطة المدنيّة، والحفاظ على القانون والنظام في وجه المجرمين المقلقين، والعبيد، والمتمرّدين. في فلسطين، كان الصلب نوعًا من التذكير بعبوديّة اليهود لقوّة خارجيّة.

١٤– Gerald G. O'COLLINS, «Crucifixion», p. 1207ss.

١٥– رج جيرد تيسن، **ظل الجليلي** (سلسلة بيبليات، رقم ١٠، الكسليك، لبنان ٢٠٠٤): سيدات أورشليم يهتممن بتخفيف آلام المحكومين.

من الصليب والمصلوب يتدفّق الإيمان

استنادًا إلى مرقس[١٦]، «لمّا رأى قائد المئة، الذي كان يقف قبالة يسوع، أنه مات، قال: في الحقيقة، كان هذا الرجل ابنَ الله» (١٥:٣٩). بالنسبة إلى الإنجيل الثاني، الذي شدّد بشكل متواصل على تحريم يسوع كشْف هويّته الحقيقيّة، هذا «السرّ المسيحاني» كشفه هو أمام السنهدرين عندما أقرّ بوضوح أنه كان «المسيحَ، ابنَ المبارك» (١٤:٦٢). بإمكان قائد المئة إذًا أن يكون أول شخص يعترف، على خطى المسيح، ببنوّته الإلهيّة، مباشرةً بعد أن انشقّ حجاب الهيكل (١٤:٣٨)، الذي يرمز إلى نهاية التدبير الإعدادي، وبلوغ الأمم الوثنية إلى الله الوحيد بالإيمان بالمسيح. الإقرار بمسيحانيّة يسوع حَوّلَه الأعداء إلى موضوع سخرية، كما أيضًا الكتابة («العنوان»، "oJ tivtolo") التي عُلّقَت على الصليب تحت التسميات المعادلة لـــ«ملك اليهود» (مر ١٥:٢٦) و«ملك إسرائيل» (آ ٣٢)؛ توضح هذه الكتابة على الصليب سبب الحكم بالموت (يو ١٩:١٩ي)[١٧].

لقد حصل اعتراف بإيمان كريستولوجي من «رؤية يسوع قد أسلم الروح» وحسب. تعني صرخة البؤس، «إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟» (آ ٣٤)، أن يسوع قد مات موت كل إنسان، وليس ميتة «غير عادية». بالنسبة إلى مرقس، المهمّ هو الوقوف، على مثال قائد المئة، «مقابل» يسوع (آ ٣٩ هي خاصة بمرقس) والتحديق إليه: ففي «الرؤية» التأمُّلية للمصلوب يولد الإيمان المسيحي ويكبر.

الصليب في مرقس ١٥:٢٢–٣٧

بعد صلاته في الجسمانيّة، أُوقف يسوع واقتِيد أمام السنهدرين. هناك، حُكِمَ عليه بعقوبة الموت، بعدما اتُّهِمَ بالتجديف، وثُبِّتَ الاتهامُ ضدَّه بأنه مجدّف بعـــد أن أَعلَنَ أنه ابن الله. وإذ كان رؤساءُ اليهود قد حُرِموا من حقّ إنزال عقوبة كهذه به،

١٦– Paul TERNANT, *Le Christ est mort pour nous tous. Du serviteur Israël au serviteur Jésus* (Cerf, Paris 1993).

١٧– P.F. REGARD, «Le titre de la Croix d'après les évangiles», *Rev. Archéol.*, 5. sér. 28 (1928) 95-105.

عالِمِين أنَّ الرومانيين لن يأخذوا بعين الاعتبار شكوى مبنيةً على مسألةٍ دينية، سارعوا إلى إصدارِ قرارٍ ذاتِ طابعٍ سياسيٍّ ضدَّ يسوعَ، مبنيّ على تهمة، وهي أنه متَمَرِّدٌ على الحكمِ الروماني (لو ٢:٢٣). كان بيلاطس مقتنعًا بعدم صحّة هذه الشكوى، فأعلن، وهو المتردّد في رأيه وموقفه، حكمَ الموت على يسوع. في كل هذه المأساة، تمَّم اليهود والرومانيون، ومن غير إدراك منهم، التصميمَ الإلهيّ (أع ٢٣:١١؛ ٢٧:٤-٢٨).

١- ثِقلُ الصليب (مر ١٥:٢١ و٢٣)

كما كان على كلِّ المحكومين أن يفعلوا، حمل يسوعُ بنفسه صليبَه بدايةً، ولكن، بسبب الضعف الذي سبّبه له الجَلْد، سقط أرضًا، منهَكًا وخائرَ القوى. أُوقِفَ شخصٌ كان عائدًا من حقله، وحُمِّل صليبَ المسيح. وصل الربُّ أخيرًا إلى القِمّة المدعوّة الجمجمة، وهو اسمٌ مُعطَى لها بسبب شكلِها الذي يشبه الجمجمة. كان مكانُ التعذيب خارجَ المدينة؛ لهذا مكتوب أن المسيح «قد تألم خارجَ الباب» (عب ١٢:١٣)؛ هكذا رُذل يسوع من شعبه.

يخبر مر ٢٣:١٥ عن عادة إعطاء مخدِّرٍ للذين كانوا محكومين بعقوبة الصليب؛ بهذا كان اليهود يطبّقون تعليمَ كتاب سفر الأمثال (٦:٣١-٧)؛ كانت هذه العادة تُمارَس كواجب ديني من قبل نساء أورشليم المُحسنات[١٨]؛ فمن أجل الإقرار بمحبتهنّ ذاق يسوع من هذا الشراب، ولكنّه لم يشأ أن يشرب، لأنه رضي أن يموت لأجل خطايا العالم في كامل قواه؛ رفض أن يأخذ المخدِّرَ، كي يشربَ كأسَ الآلامِ التكفيريّةِ حتى الثمالة.

٢- آلام الصليب (مر ١٥:٢٤ و٢٥)

«وصلبوه»: كان الصلب عقابًا مرعبًا، محفوظًا للعبيد وللثوّار الذين كان ينبغي

١٨- رج جيرد تيسن، **ظلّ الجليلي** (سلسلة بيبليات، رقم ١٠، الكسليك، لبنان ٢٠٠٤): سيدات أورشليم يهتممن بتخفيف آلام المحكومين.

أن يحمل موتهم طابعَ العار. كان ذاك موتًا مريعًا: كان الضحيةُ ينازع أحيانًا، ليس لساعات فقط، كما حصل ليسوع، بل لمدّة أطول، ويموت بالتالي بشكل مأساوي.

«واقتسموا ثيابه مقترعين على ما يأخذ كلُّ واحدٍ منهم» (مر ١٥:٢٤؛ رج مز ٢٢:١٩). كانت ثياب محكومٍ ما تُعطَى دائمًا لجلاّديه؛ ولأن ثوب يسوع كان قطعةً واحدة، اقترعوا عليه لمن يكون.

٣– عار الصليب (مر ١٥:٢٦)

في هذه الآيات يمكننا أن نلاحظ أن كلّ ما صُنع لإذلال المسيح كان له مفعولٌ معاكس، أي رَفْعُه.

– الكتابة

وفق العادة، سُمّرَتِ التهمةُ على الصليب: «هذا يسوع، ملك اليهود» (مت ٢٧:٣٧). كان هذا علة الحكمِ المعلَّقِ بأمر بيلاطس. سارع رؤساء اليهود المتهوّسون إلى بيلاطس ليقولوا له: لا تكتب: ملك اليهود، بل اكتب أنه قال: «أنا ملك اليهود» (يو ١٩:٢١). كانوا وكأنّهم يلاحظون له الأمرَ التالي: «بدلاً من التهمة، أنت أثبتَّ إعلانًا». أجاب بيلاطس، وقد أضحى هذه المرةَ رافضًا للنقاش: «ما كَتبتُ قد كَتَبْتُ». حتى في موته، أُعْلِنَ يسوعُ مَلكًا. لقد كان موتُه رَفْعًا له! (يو ١٢:٣٢ و٣٣) أي على عكس ما كانوا يبتغون.

– اللّصّان

«وصلبوا معه لصّين، واحدًا عن اليمين، وآخرَ عن اليسار». وضعوه بين لصَّين، كما لو كانوا يريدون أن يضاعفوا إذلاله، لكنّهم كانوا يجهلون أنهم وضعوه، هو صديقُ الخطأة، حيث أحبّ دائمًا أن يكون. فكما كان يعيشُ في وسطهم، هكذا كان مسرورًا أن يموت في ما بينهم ولأجلهم. في هذه الصلبان الثلاثة، لدينا صورةُ الضحيّةِ التكفيريّةِ ونتيجتُها. يموت البريء عن الخطايا؛ يموت الخاطئ التائب مطهَّرًا من خطاياه؛ أمّا الخاطئ المتصلّب فيموت فيها (لو ٢٣:٤٠–٤٣).

– الاستهزاء

يشكّل الاستهزاء الوسيلة الإضافية لإذلال يسوع وقهره وتعذيبه معنويًّا، إلى جانب ما يقاسيه على الصليب جسديًّا. يُبرزُ المجتازُ أمام الصليب التعارضَ بين السلطة التي كان يسوع يؤكّد عليها قبلاً: «لي سلطان...» (يو ١٠: ١٨)؛ «ما كان لك أيّ سلطان عليّ لو لم تُعطَه من علُ» (يو ١٩: ١١)، وبين عجزه الحاضر: «أنت الذي تنقض الهيكل وتعيد بناءه في ثلاثة أيام، خلّص نفسك» (مر ١٥:٢٩). «إذا كنت ابنَ الله، إنزل عن الصليب» (مت ٢٧:٤٠). كان القليل من الناظرين يفهمون أنهم كانوا يتأمّلون «ضَعْفَ الله» الذي هو أقوى من البشر (١قور ١:٢٥؛ ٢قور ١٣:٤).

كان المستهزئون يقولون: «خلَّصَ آخَرين ولا يستطيع أن يخلّصَ نفسَه». إنّهم قادةٌ عميان. إذا وضَعنا «لا يريد» مكان «لا يستطيع»، فسنصبح في قلب الحقيقة. قد لا يكون ممكنًا للمسيح أن يخلّص آخَرين لو خلّص نفسه. هل ننسى كلماتِ النبيِّ القائل: «جُرِحَ لأجل خطايانا، وسُحِقَ لأجل آثامنا، وبجراحه شُفينا» (أش ٥٣: ٥)؟ كانوا يقولون وهم يستهزئون: «قد اتّكل على الله، فَلْيُنَجِّهِ الآن إنْ كان راضيًا عنه» (مت ٢٧:٤٣). قبل ذلك بمئات السنين كان أشعيا قد قال: «قد احتقرناه... اعتبرناه مضروبًا من الله ومُذلَّلاً» (أش ٥٣:٤).

٤– ظلام الصليب (مر ١٥:٣٣–٣٦)

– الظلام بالمعنى الحصري

«وكان ظلامٌ على الأرض كلِّها» (لو ٢٣:٤٤). كان هذا الظلام أعجوبةً أو آيةً؛ إنه الشهادة الإلهيّة التي تبرهن أنّ هذا الموت لم يكن موتَ إنسانٍ كالآخَرين. لقد كان حجابًا يسترُ آلامَ يسوع الأخيرةَ عن عينَي مَن هو دنيوي، وعلامةً تدلّ على أنّ نورَ العالَمِ قد كَسَفَهُ شَرُّ البشرِ لكن مُؤَقَّتًا.

– الظلام بالمعنى الروحي

«إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟» (مت ٢٧:٤٦). ماذا تعني هذه الكلمات؟

– من المهمّ التذكّر أنّ الربّ يستشهد بالكتب المقدّسة في كلّ آلامه؛ فلقد كان يتبع دائمًا تصميمًا إلهيًّا (رج يو ١٩:٢٨؛ مت ٢٦:٥٤؛ لو ٢٤:٤٦). فصرختُه، «إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟»، هي استشهادٌ مأخوذٌ من مز ٢٢، يصفُ نبويًّا مشهدَ قتلِ المسيح. فكّر اليهود المنوَّرون مباشرة بهذا المزمور لدى سماعهم كلمات المسيح من على الصليب، فتمكّنوا أيضًا من أن يُماهوا بين شهيد الصليب وبين شهيد المزمور. قد يفسِّرُ هذا لو ٢٣:٤٨، الذي يقول: «وكلّ الجموع التي أتت لتشهد هذا المنظر، ورأت ما حدث، كانت تعود وهي تقرع الصدور».

– كما نزاع الجسمانية، لا يمكن فكّ كلمات يسوع على الصليب عن الطابع التكفيري لآلامه. يموتُ الشهداءُ عادةً ولديهم القناعةُ أنّ اللهَ معهم؛ فالذي أَلْهَمَ هؤلاء الشهداء، يموت وكأنّ الله قد تركه؛ انطلاقًا من هذا الأمر، يمكنُنا أن نعطيَ الشرحَ التالي: لم يُنازِعْ يسوعُ كشهيد، بل كذبيحةٍ حيّة، ممّا يعني أنه لم يحملْ فقط الخطيئة، بل أنه أصبحَ خطيئة (٢ قور ٥:٢١). ولأنه تماهى هكذا مع الخطيئة، يبدو وكأنّ الله يتعامل معه كخاطئ، أو كأنه تخلّى عنه إلى حين. على الصليب حَمَلَ يسوع إلى حين وِشاحَنا الشنيعَ، وِشاحَ الخطيئة، كي نتمكّنَ من أنْ نلبسَ نحن دائمًا «وشاحَ البرّ».

لا يفهمُ معظمُ الناسِ معنى صرخة يسوع هذه، فيفسّرونها على أنها تعبيرٌ بسيطٌ عن البؤسِ البشريّ؛ هكذا فعلتِ الجماهيرُ في زمنِ يسوع.

٥– الموت على الصليب (مر ١٥:٤٤)

«وإذ صرخ يسوع، أسلم الروح» (مت ٢٧:٥٠)

نلاحظ في هذه الصرخة وما تبعها أمرَين:

– كان المحكومون صلبًا ينازعون طويلاً، وأحيانًا لمدّة ثلاثة أيام؛ ولكنّ المسيح مات بعد بضع ساعات من الصلب، الأمر الذي فاجأ بيلاطس إلى حدٍّ كبير: «تعجّب بيلاطس من موت يسوع العاجل، فاستقدم قائد المئة، وسأله: هل مرّ وقت طويل على موت يسوع؟» (مر ١٥: ٤٤).

– عندما طعنَ أحدُ الجنودِ جسدَ يسوع، ليتأكّد أنه مات، «سال منه دمٌ وماء» (يو ١٩: ٣٤) للحياة.

– القيرواني نموذج في حمل الصليب

كانت توبة «اللص الصالح» سريعة، وسبقت مباشرةً موتَه. على تلميذ المسيح عادةً أن يسلك طريقًا أطول بكثير. فبعد الإيمان بالمسيح، عليه «أن يحمل صليبه»، وعليه أن يفعل ذلك «كلّ يوم» كما يوضح لوقا (لو ٩:٢٣؛ أنظر مت ١٦:٢٤ ومر ٨:٣٤؛ مت ١٠:٣٨ ولو ١٤:٢٧). مهما كان المعنى الأوّل لهذا التعبير، أي «يحمل صليبه»، والفهم الذي تكوّن له عند متّى ومرقس ومصادرهما، فمن المؤكّد أنّ لوقا، من جهته، قد وضع علاقةً بين صليب التلميذ وبين آلام المعلِّم. في الواقع، عندما يخبر لوقا كمتّى ومرقس عمّا يتعلّق بسمعان القيرواني، يقول بأنهم «جعلوا عليه الصليب ليحمله وراء يسوع» (٢٣:٢٦). هذه العبارة، «وراء يسوع»، هي خاصّةُ لوقا في هذا المكان، وترمي بالتأكيد، إلى التذكير بكلام يسوع في لو ١٤:٢٧ (راجع مت ١٠:٣٨): «مَن لا يحمل صليبه ورائي لا يمكنه أن يكون تلميذي». التلميذ الحقيقي هو الذي «يحمل صليبه» مقتفيًا خطواتِ يسوع إلى المكان الذي يُقال له «الجمجمة»، وسمعان القيرواني، نموذجُ هذا التلميذ، هو الذي حمل صليبَ يسوع، «وراء يسوع».

على خلاف سمعان، يحمل كلُّ تلميذٍ صليبَه الخاص، ولكن لا يمكنه ذلك إلاّ إذا تبع يسوع، الذي يجذبه بالوحي المخبوءِ في كل حياته من عطاء الذات، الذي تمَّ على الجلجلة.

– من التأمّل في الصّليب إلى الإيمان

الإيمان بيسوع، حسب لوقا، هو إذًا تحرّك داخليٌّ ينتج عن التأمل في الصليب، والتلميذ الذي يسير في إثر المسيح يغذّي منه ارتدادًا متجدِّدًا ودائمًا إلى الربّ. يجتهد لوقا في أن ينقل إرثَ الجماعة المسيحيّة الأولى إلى المعمَّدين اللاحقين، أعضاءِ

الكنيسة، وإلى غير المسيحيّين الهلّينيّين في مسيرهم نحو الإيمان، الذين لن يعرفوا الحدثَ التّاريخيّ إلا من خلال الروايات التي تقدّم لهم الوقائعَ على ضوءِ الكتب المقدسة. يستبدل لوقا الاستشهادَ من مز ٢:٢٢ («إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟») بآخر من مز ٦:٣١ («بين يديك أستودع روحي»)، الذي تسبقه الدعوة «أيّها الآب»، لتدارك تفسير خاطئ لصرخة الأسى التي أطلقها البارُّ المتألّم، وفي كل الأحوال، لكي يجعل موتَ يسوع أكثرَ مثاليّة. ليس يسوع متروكًا فعليًا من قِبَلِ الله، لا بل هو مَن يترك ذاته لأبيه.

– المُعَلَّق على الصّليب أُحصِيَ بين الأثمة

لوقا هو الوحيد بين الإنجيليّين الذي يطبّق صراحة على آلام يسوع نبوءة أش الثاني الكبيرة حول العبد المتألّم، إذ أدرج أش ١٢:٥٣: «أحصي بين الأثمة» (لو ٣٧:٢٢)، وسيستشهد مطوّلاً بالنبوءة ذاتها في أعمال الرسل، واضعًا أش ٥٣: ٧-٨ في قلب حوارٍ يقوده فيليبس (أع ٣٢:٨-٣٣).

يتوجّه هذا الأخير بالكلام إلى موظّفٍ حبشيٍّ كبير يعتبره لوقا، على ما يبدو، أنه «يخاف الله» أو مهتديًا. لا يختصر المقطع المُدرَجُ كلَّ تبشيره، كما يظهر ممّا يلي: «وإذ انطلق من هذا النص، وأخذ يبشّره بيسوع» (أع ٣٥:٨)، قبل أن يعمّدَه (آ ٣٨). يُفترض بالتأكيد أنّ الخصيَّ الحبشيَّ، الذي يوحي سيرُهُ بنوعٍ خاصّ بسيرِ غير اليهود الذين يتعاطفون مع التيّار اليهودي، ويمتلك بعض المعرفة لكتبه المقدسة، تلقّى البشرى بقيامة المسيح. لكنّ اختيار النصِّ المفترضِ أنه أفاد في أن يكون نقطةَ انطلاق لتبشير هذا الشخص بالإنجيل، هو ذو مدلول كبير. **إيجابيًّا**، هو يعني أنّ التأمّل الذي يمكن القيام به، عبرَ الكتاب المقدس، حول يسوع العبد الحقيقي لله، الذي عُومل كمجرم، لكن بتركه ذاته لإرادة أبيه كحمل صامت يُساق إلى الذبح، يقود أو يمكنه أن يقود القلوب المستقيمة إلى مسيرة الإيمان والتوبة الشاملة. **سلبيًّا**، يؤكّد اختيار لوقا أنّ واضعَ الإنجيل الثالث وأعمال الرسل، الذي ترك جانبًا آيات أش ٥٣ التي يمكن أن تُطَبَّقَ على الفعالية الخلاصيّة لموت يسوع

صلبًا، فضَّل تحاشي موضوع القيمة التكفيريّة لهذا الموت، وقد يكون بالضبط ليبيّن بطريقة أفضل دورَه الحاثّ على الارتداد والإيمان، وامتنع عن كل ما يمكنه أن يؤديَ إلى التفكير بعقاب أُنزل بيسوع بدلاً عن الخطأة.

د- الصلب بحسب القديس يوحنا[١٩]

١- نظرة إيمان على المسيح «المرفوع»

رواية الآلام بحسب القديس يوحنا هي فريدة في العمق، وينبغي بالتأكيد وضعها في علاقة مع مجموعته الخلاصية (السوتِرْيولوجيّة). إنّ ما أُعطي لأن يُرى على الجلجلة كان ويبقى طريقًا نحو الإيمان والتوبة، أي جوابًا يحمل إلينا السردَ اليوحنّاوي. في الإنجيل الرابع، يعلن يسوعُ ذاتَه علانيةً أنه ابن الله (٥:١٨-٣٠؛ ١٠:٣٣؛ ١٩:٧؛ إلخ.)، وأضفى على ذاته الـ«أنا هو» الإلهيّة كما في أش ٤٣:١٠ (يو ٨:٢٤؛ ٨:٢٨؛ ١٣:١٩). أثناء آلامه، يعلن ملوكيّتَه الروحيّة (١٨:٣٣-٣٨). إضافة إلى ذلك، يعني موضوعُ «رفع» يسوع (٣:١٤؛ ٨:٢٨؛ ١٢:٣٢) أنّ الموت على الصليب، الذي يرمز إلى الرَفْع بالمجد[٢٠]، وكأنه ابتُلِعَ في هذا المجد، أو، بتعبير آخر، أن القيامة المجيدة يتمّ التأملُ فيها بشفافيةٍ عبر الصلب المميت. كل هذا يفسّر أنّ «رؤيةَ» ما يجري على الجلجلة لن يكون قطعًا، بالنسبة إلى يوحنا، تسليط هذا النظر البشريّ الصادق الذي، إذ يَلِدُ بدايةَ إيمانٍ أدّى بالضابط الوثني إلى أن يستخلص من الطريقة التي مات بها (مرقس ولوقا)، أو من الظواهر الكونية التي رافقت موتَه (متّى)، أنّ هذا الرجلَ كان ابنَ الله (مرقس ومتّى) وبارًّا (لوقا)، بل تسليط «نظرةِ إيمانٍ» إلى المصلوب المتوشّح، مسبقًا، بملءِ

١٩- Paul TERNANT, *Le Christ est mort pour nous tous. Du serviteur Israël au serviteur Jésus* (Cerf, Paris 1993).

٢٠- بولس الفغالي، «المسيح هو الملك المصلوب؛ لو ٢٣: ٣٣-٤٣»، في مؤلَّفه: **إنجيل لوقا**، الجزء الثالث: **يسوع في أورشليم. الآلام والقيامة** (دراسات بيبلية ١٣، الرابطة الكتابية، لبنان، ١٩٩٦) ٤٣٣-٤٤٣؛ **معجم اللاهوت الكتابي** (دار المشرق: بيروت ١٩٨٦) ٤٨٣-٤٨٤.

الكرامة التي ستكشفها القيامة، وبملءِ القدرةِ الخلاصيّةِ التي ستضفيها هذه عليه. لقد عمي «رؤساء هذا العالم»، فلم يعرفوا الحكمة، «ولو عرفوها لما صلبوا رب المجد» (١قور ٢:٨)، ومع هذا قام الرب بالمجد الذي كان له عند أبيه (يو ١٧: ٥). هذا ما صاغه بطرس بقوله: «إنّ يسوع هذا الذي صلبتموه أنتم، جعله الله ربًا ومسيحًا» (أع ٢: ٣٦).

٢- دور مشهد الصليب في ولادة الإيمان ونموّه

في ولادة الإيمان ونموّه، يعبّر يوحنا عن دور خاصّ للتأمل في مشهد الجلجلة. ولكن على قدر ما تتعلّق الرواية اليوحنّاويّة بموت المسيح بالذات، وهي رواية مثقلة بالرمزيّة التي لا يلقى سبرُ أغوارِها إجماعَ المفسّرين، تتعلّق أيضًا بما يحدث بعدما أسلم يسوع الروح. و«الذي رأى» شهد علنًا (يو ١٩:٣٥) على حدثين، وهما أن يسوع لم تُكسرْ ساقاه، وأنّ دمًا وماءً تدفّقَا بسبب طعنِ الجندي له. الحدثُ الأول هو «تتميمُ» كلمةٍ هي دمجٌ بين خر ١٢:٤٦ حول الحمل الفصحيّ، وبين مز ٣٤:٢١ حول الحماية التي يهبها الله لبارٍّ متألّم: «لا يُكسر له عظم» (يو ١٩:٣٦). الثاني، موضّح باستشهاد من زك ١٢:١٠: «سينظرون إلى الذي طعنوه» (يو ١٩:٢٧). يتبع هذه الجملةَ المقتضبةَ في زكريّا الإعلانُ عن رثاءٍ يُستعمل في حوارٍ يقام «له كما للابن الوحيد» (آ ١٠ب-١٤)، والوعد بتدفّقِ ينبوعٍ مطهِّرٍ (١٣:١). الآية ١٠ من الفصل ١٢ تُقرأ بعدّة طرق: «أفيض على بيت داود وعلى ساكن أورشليم روحَ إرادةٍ صالحةٍ وتضرُّع. عندها ينظرون إليّ، مَن طعنوه»، أو «إلى الذي طعنوه» (قراءة تيودوسيون، التي يستعيدها يوحنا)، أو أيضًا: «إليّ. من طعنوه يقيمون حدادًا لأجله»، إلخ. وإليك زك ١٣:١: «في ذاك اليوم، يتدفق ينبوعٌ لبيت الله وسكان أورشليم علاجًا للخطيئة وللدنس». هناك تجربة، وهي الاعتقاد أنّ إنجيل يوحنا يُماهي ضمنيًّا بين هذا الينبوع وبين جنب يسوع الذي طُعن، من حيث سيجري دم الحمل الفصحي الحقيقي المحرِّر، المائتِ في الساعة ذاتها التي فيها كانت تُذبح حملانُ الفصح في الهيكل، ويجري ماء الروح.

تبدو الأرجحية كبيرةً، خاصّة في ما يتعلق بمعنى الماء كرمز الروح الذي «ينقله» يسوعُ (٣:١٩).

يعتقد عدة مفسرين أنَّ بالإمكان تدعيم معنى الماء المتدفق من الجنب المفتوح كرمزٍ للروح المنقول، من خلال اللجوء إلى يو ٣٧:٧-٣٩؛ فاستناداً إلى التعليق الذي تعطيه الآية الأخيرة من هذا المقطع، يعني الماء فيه الروحَ الذي وُعِدَ به من يؤمنون بيسوع، وعطاء الروح محفوظ فيه إلى ساعة «تمجيدٍ» يتحقق رمزيًّا عندما «يُرفع» يسوعُ على الصليب (أنظر ٢٣:١٢). إنّ المقاربة بين هذا النص وبين ٣٠:١٩ و٣٤ هو أكثر وضوحًا.

المسيح هو الينبوع الذي على الإنسان أن يأتي إليه أوّلاً، بالإيمان، يرتوي من الروح (آ ٣٩) قبل أن يصبح بدوره ينبوعًا. أربع نقاط تبقى مشتركة بين مختلف القراءات الممكنة للنصّ المأخوذ في حالته الأخيرة: يعطي المسيح الشرابَ عندما يُمَجَّد؛ ما يعطيه يكون الروح، الذي يُمَثَّل بالماء؛ لِتَلَقِّي هذا الروح (الذي يشير إليه الإطار كعاملٍ وحيٍ)، يجب أن يكون المرءُ عطشانًا ويأتي إلى المسيح؛ أخيرًا، الذين يتلقّون فعليًّا الروح هم الذين يؤمنون بيسوع منذ «تمجيده». الماءُ الجاري من الجنب المطعون، جنبِ يسوعَ «المرفوعِ» على الصليب، يمثل الروح. إنه لَذو مدلول، في ١ يو ٦:٥، أنّ ذكر الماء والدم، اللذين يوحيان بعماد يسوع وموته من خلال استذكار يو ٣٤:١٩، يستدعي حالاً تأكيدَ شهادة الروح.

٣- سينظرون إلى الذي طعنوه

توحي الرواية اليوحنّاويّة بحدّ ذاتها حول الآلام أنه، من أجل أن يتلقى الإنسانُ الروح، يجب أن يكون عضوًا في عائلة المؤمنين الذين «يرون» المسيح «المرفوع» على الصليب؛ عن هذه الضرورة يعبّر الاستشهادُ الذي يستلّه الإنجيليّ على طريقته من زكريّا. مَن شاء أن يخلص بإرسال الروح، يجب عليه بشكل عادي أن يوجّه إلى يسوع المسمّر على الصليب نظرَ التوبةُ والإيمان، على مثال الإسرائيليين الذين كانوا ينظرون إلى الحيّة النحاسيّة التي كان موسى قد أقامها، وبهذا الشرط فقط، كانوا

يبقون على قيد الحياة (يو ٣:١٤-١٥، الذي يحيل إلى عد ٢١: ٨-٩). كانت هذه الحيّة المنصوبة على «ساريّة» (عد ٢١:٨)، أي، حسب السبعينية، «علامة» (σημειον)، لأجل خلاص شعب الخروج، صورةَ يسوعَ على الصليب، يسوع الذي، خمسة أيام قبل فصح اليهود وفصحه، كان قد «عَنَى» (σημαινων) أيَّ ميتةٍ كان سيموت (يو ١٢:٣٣) وهو يعلن أنه، عندما يُرفَع عن الأرض، سيجذب إليه كل الناس (١٢:٣٢).

عندما كتب الإنجيلي الاستشهاد البيبلي، «سينظرون إلى الذي طعنوه»، مع الفعل «رأى» بصيغة المستقبل، فكّر لزامًا أوّلاً بأولئك الذين، بين اليهود، سيعتنقون الإيمانَ المسيحيَّ بعد الفصح. فيهم ستتحقّق نبوءة يسوع: «عندما ترفعون ابن الإنسان، عندها تعرفون أني أنا هو» (٨:٢٨). لكنّ ذلك لا يكفي. لا يريد يوحنا بالتأكيد أن يقول إنّ المفعول المحيي للنظر إلى المطعون «ينحصر بالوثنيّين»، لكنه أيضًا لا ينحصر باليهود؛ فمن المرجّح جدًّا أنه، بالإضافة إلى اليهود الصادقين - بمن فيهم حتى الذين «طعنوه» - يفكر يوحنا بالوثنيين الذين، في زمانهم، انضمّوا إلى الكنيسة بأعداد كبيرة. ردًّا على يونانيين كانوا قد طلبوا أن «يروه» (١٢:٢١)، أعلن يسوع عن هذه الجاذبية الشاملة واللاحقة «لارتفاعه». عندما «رُفِعَ» فعليًّا على الصليب، وأُعلنت مُلُوكيّته على اليهود وعلى مسمع من العالم (١٩:٢٢: «الكتابة» على الصليب تُنشَر بلغات ثلاث، ليس فقط ما يدّعي أن يكون، بل ما هو)، وأنّ الجندي الروماني، هو وثني، فتح جنب يسوع بحربة، يبدأ توقُ الوثنيين للاستفادة من «الخلاص الذي يأتي من اليهود» (٤:٢٢) بأن يُستجاب: «بمكنهم أن يروا» المطعون، أي أن يرتدّوا ويؤمنوا به. إنّ ما يحتفظ به سفر الرؤيا للوقت الذي فيه يأتي يسوع المسيح في وسط الغمام (رؤ ١:٧) صار بالنسبة إلى الإنجيلي حقيقةً واقعيةً في زمن الكنيسة.

لا «يرى» الناسُ بالتأكيد بعد ذلك المطعونَ بعيونهم الجسدية، ولكنهم يستطيعون أن يؤمنوا به بفضل «شهادة» الكتب المقدسة (أنظر يو ٥:٣٩) مضافةً إلى «شهادة» «الذي رأى» (١٩:٣٥)، أي على الأرجح «التلميذ الذي كان

يسوع يحبّه»، الذي كان يقف عند الصليب مع مريم (١٩:٢٦). هذا التلميذ، الذي قَبِلَ وديعةً مقدسة، أمَّ يسوع، والذي تضمن الجماعة اليوحناوية مصداقيتَه (٢١:٢٤)، قد شهد بالكلمة والكتابة، «لكي تؤمنوا أنتم أيضًا» (١٩:٣٥)، أنتم القرّاء. حتى منتهى الأزمنة، يجب أن يقود تأملُ المصلوب إلى الإيمان، ثمّ إلى تجدّده بشكل دائم، بواسطة الشهادة الرسوليّة (راجع يو ١٧:٢٠)، العديدَ من الناس ذوي الإرادة الحسنة.

صليب يسوع وما يجري حوله بحسب يو ١٩:١٦ب-٣٧[٢١]

على طريق الجلجلة، حمل يسوع بنفسه صليبه كأداة العمل الخلاصي[٢٢]؛ معه صُلب آخَران، «واحد من كل جهة، ويسوع في الوسط».

– الكتابة على الصليب: يسوع ملك

يخصّص يوحنا أربع آيات (١٩:١٩-٢٢) لمناقشة الكتابة التي علّق بيلاطس على الصليب: «يسوع الناصري، ملك اليهود». هذا النص، الذي كتب بثلاث لغات، يعلن مُلكيّةَ يسوع على الكون[٢٣]. مشهد الجلجلة هو إذًا على تواصل مع دار الولاية:

– في المكان الذي يسمّى "البلاط" (*Lithostrotos*)، كان بيلاطس قد أعلن أنّ يسوعَ ملكٌ: «ها هو ملككم» (١٩:١٤)؛ وعلى الجلجلة، فعل الشيء ذاته، ولكن هذه المرّة كتابةً: «يسوع الناصري ملك اليهود» (آ ١٩).

٢١- A. VANHOYE, Ch. DUQUOC et I. DE LA POTTERIE, *La Passion selon les quatre Évangiles* (coll. Lire la Bible, 55; Cerf: Paris 1981) 83-86.

٢٢- تتكرر هذه الفكرة غالبًا في التقليد؛ أنظر مثلاً توما الأكويني، **حول قراءة حول إنجيل يوحنا**: «يحمل المسيحُ الصليبَ كما الملكُ صولجانَه، علامةَ المجد الذي هو سلطانٌ شاملٌ على كل شيء... يحمله كما يحمل المنتصرُ شارةَ نصرِه».

S. THOMAS, *Super Evangelicum S. Ioannis* (ed. Marietti: Roma, 1952, n. 2414).

٢٣- Cf. D. MOLLAT, *L'évangile selon St. Jean*, fasc. de la *Bible de Jérusalem*, p. 182, n. 2.

– في "البلاط"، كان اليهود قد رفضوا أن يقبلوا يسوع كملك عليهم: «لا ملك لنا إلا قيصر» (آ ١٥)؛ وعلى الجلجلة، طلبوا أن يغيّر بيلاطس الكتابة التي علّقها على الصليب: «لا تكتب: ملك اليهود» (آ ٢١).

– كانت محطّة "البلاط" صورةً مسبقة لمحطة الجلجلة.

– اقتسام الثياب وانقسام اليهود

ننتقل الآن من العلامة (signe) إلى الحقائق النهائية، أي إلى مُلكية يسوع ودينونة هذا العالم:

– في مشهد اقتسام الثياب (آ ٢٣–٢٤)، يشدّد يوحنا بنوع خاص على أن القميص لم «يُمَزَّق» (σκιζω)؛ الاشتقاق اليوناني σκισμα مستعمل في الإنجيل للقول بأن اليهود كانوا «منقسمين» حول يسوع (٧:٤٣؛ ٩:١٦؛ ١٠:١٩)؛ في ٢٠:١١، في مشهد البحيرة ذي المضمون الرمزيِّ البيّنِ بوضوح، سيقول يوحنا إنَّ «الشبكةَ لم تتمزّق». يرمز القميص الذي لم يُمَزَّقْ إلى وحدة الكنيسة، التي تحققت بموت يسوع، كما كان قيافا قد تنبّأ (١١:٥٢).

– مريم الأمّ تجمع بنيها

إنّ وجود مريم عند الصليب قد فُسِّرَ بعدّة وجوه[٢٤]. يُقرُّ المفسّرون، وعددهم على ازدياد، أن هذا المشهد لا يصف فقط فعلَ تقوى بنويّةٍ من قِبَلِ يسوع تجاهَ أمِّه، بل كشفٌ حقيقيٌّ لأمومتِها الروحيّة. أولاً، إنّ مناداة يسوع لأمِّه، وخلافًا للعادة، «يا امرأة» (وقبل ذلك أيضًا في قانا، يو ٢:٤)، يعني أنها لم تَعُدْ أمَّ يسوع

٢٤– F.-M. BRAUN, *La mère des fidèles. Essai de théologie johannique* (Tournai 1953) 100-133; A THYES, «Jean 19,25-27 et la maternité spirituelle de Marie», *Marianum* 18 (1956) 80-117; A. FEUILLET, «Les adieux du Christ à sa mère (Jn 19,25-27) et la maternité spirituelle de Marie», *NRT* 86 (1964) 469-489 ; I. DE LA POTTERIE, «'Et à partir de cette heure, le Disciple l'accueillit dans son intimité' (Jn 19,27b)», *Marianum* 42 (1980) 84-125.

فقط؛ كما المرأة–صهيون في العهد القديم (مز ٥:٨٧؛ أش ١٨:٥١ و٢٦؛ ٨:٦٦)، ترى مريمُ أولادَها يلتئمون حولَها. إنّ كلماتِ يسوعَ «تكشفُ سرًّا»: تصبح مريمُ هنا ليس فقط أمَّ التلميذِ الحبيب، بل أمَّ كلِّ مَن يمثّلهم، أي مجموعةِ المؤمنين.

– لقد تمّ! وأسلم الروح

بعد ذلك، تمّ العمل، وصار بإمكان يسوعَ أن يلفظ كلمتَه: «لقد تمّ». ولكن لكي يبيّن يوحنّا كم أنّ لموت يسوع مضمونًا خلاصيًا، فهو يصفه بإحدى هذه الصيغ ذات المعنى المزدوج الشائعة عنده: يسوع «أسلم الروح»، مُدَشِّنًا بموته المرحلةَ الأخيرةَ من تاريخ الخلاص، زمنِ فيضِ الروح.

– لم يكسروا ساقَي يسوع

اللوحة التي تلي (آ ٣١–٣٧) هي خاصّةُ يوحنا. لم تعد الوقائعُ التي تُروى هنا تخصّ عملَ يسوع بالذات؛ فبمضمونها الرمزيّ العالي، تُفيد في إفهام فعالية موت يسوع الخلاصية. على عكس ما فعل الجنود للمحكومَين الآخرَين، لم يكسروا ساقَي يسوع؛ عندما استَشهد يوحنا في آ ٣٦ بنصّ خر ٤٦:١٢ حول طقس الفصح، كان يشدّد على معنى الحدث: مات يسوعُ كحملِ فصحِ العهدِ الجديد.

– سال دمٌ وماء

للتفصيل الآخَر أهميةٌ أكبر أيضًا: فمن الجنب الذي فتحه رمحُ الجندي، رأى يوحنا دمًا وماءً يخرجان. يبيّن التشديد غيرُ العاديُّ الذي به يشهد يوحنا على ما رأى (آ ٣٥) أنّ هذا الأمر ذو مضمونٍ حاسمٍ لحياة الكنيسة. يوضح مقطعُ زكريا، الذي تُحيل آ ٣٧ إليه، كلَّ المعنى، وهو التالي: في الأزمنة المسيحانية، سيكون هناك "ينبوعٌ مفتوحٌ لسكان أورشليم" (زك ١:١٣)؛ قال الله: «أفيض (عليهم) روحَ

نعمةٍ وتضرّع، فيحوّلون أعينَهم نحوي أنا مَن طعنوا» (١٠:١٢). هذا ما يتحقق على الصليب: الينبوع المفتوح هو جنب يسوع المفتوح، من حيث يجري ينبوعُ ماءٍ حيّ، رمزُ الروح (رج يو ٣٨:٧-٣٩).

لا يمكن بعد الآن الحصول على الخلاص إلاّ من خلال نَظَرِ إيمانِ التلاميذِ نحو يسوعَ المصلوب.

٤- الصلب والصليب في رسائل بولس

- على الصليب أصبح المسيح لعنة

لو رُجِم يسوع - وهذا عقابٌ محتمل، وفقَ الشريعة اليهوديّة - لكان موتُه قد أدرجَه في مصافِ الأنبياء. فالشنق أو الصلب، وفي كلا الحالَين تُعرَض الجثّةُ على رأس قطعة خشب، هو تعذيبٌ بشعٌ تشجبُه التوراة (تث ٢٢:٢١-٢٣).

في ثقافةٍ، التوراةُ (الشريعة) معيارُها، كان ينبغي استعمالُ تث ٢٢:٢١-٢٣ لمحاربةِ مسيحانيةِ يسوع. سيواجه بولسُ المسألةَ، مستعمِلاً حصرًا تعرّجاتِ التوراة التي يستشهد بها بكثرة. إذا كان يسوعُ قد قَبِلَ أن يموتَ موتَ ملعون، فإنه فَعَلَ لينجّينا من لعنةٍ سابقةٍ متأتّيةٍ من صعوبةِ ممارسةِ الشريعة. سيلفتُ بولسُ أولاً نظرَ الغلاطيّين إلى أنّ ممارسةَ الشريعة تعرّض إلى اللعنة إذا ما حاد عنها المرءُ قليلاً. ثم يلاحظ بعد ذلك، أنّه، استنادًا إلى الشريعة بالذات، هو الإيمان مَن يبرّر. ويختم قائلاً:

«فجميعُ الذين هم من أعمال الشريعة هم تحتَ اللعنة، لأنه مكتوب: ملعونٌ كلُّ مَن لا يَثبُتُ على العملِ بكلِّ ما هو مكتوبٌ في الشريعة! وواضحٌ أنه ما من أحدٍ يُبَرَّرُ بالشريعة أمامَ الله، لأنّ البارَّ بالإيمانِ يحيا. وليست الشريعةُ من الإيمان، بل إنّ مَن يعملُ بأحكامِ الشريعة يحيا بها. فالمسيح افتدانا من لعنة الشريعة، إذ صار لعنةً من أجلنا، لأنه مكتوب: ملعونٌ كلُّ مَن عُلِّقَ على خشبة! وذلك لكي تصيرَ بركةُ إبراهيم إلى الأمم في المسيح يسوع، فننالَ بالإيمان الروحَ الموعودَ به» (غل ١٠:٣-١٤).

هكذا، بالنسبة إلى بولس، تمَّ قهرُ موتِ الجميع بموتِ واحد.

بعد مرور عشرين أو ثلاثين سنة على رسائل بولس، أخبرت الأناجيل عن الصلب. الروايات هي مجهودٌ لفَهْمِ موتِ المسيح، الموتِ الذي يُثيرُ الشك[٢٥]. فَلِفَهْمِ هذا الموت، سيعملُ متّى ومرقسُ ولوقا ويوحنا كبولس: سيغرفون من الأسفارِ المقدسة، لأنّ هذه الأخيرةَ توفّر المعالمَ ليحيا (المسيحيُّ) ويؤمن.

– الصليب: عار وعثار وافتخار[٢٦]

إنّ مجرّد إمكانيّة أو فرضيّة تعرّض المشيح للصلب هو عثار لليهود (١ قور ١: ٢٣). كان بطرس رأس الرسل أوّل مَن استنكر هذا المصير ليسوع، بقوله له: «حاشى لك يا ربّ! لا لن يحدث لك هذا! فأشاح يسوع بوجهه وقال له: سر ورائي، يا شيطان! فأنت لي عثارٌ، لأنك لا تفكر تفكير الله بل تفكير البشر» (مت ١٦: ٢٢-٢٣). يستعمل متّى اللفظة ذاتها الواردة في ١ قور ١: ٢٣، skandalon، أي «عثرة»؛ هكذا يكون بطرس عثرة ليسوع، لأن آفاقه بشرية محضة، لذلك رفض فكرة أن يُعاني يسوع الآلام وأن يُقتَل (مت ١٦: ٢١).

الصليب سبب خيبة أمل لَمن تبعوا يسوع أولاً؛ فقد أملوا في مشيح منتصر، يبسط سيطرته على المعمورة. لقد عبّر تلميذَا عمّاوس عن هذه الخيبة بقولهما: «ما كان من أمر يسوع الناصري، ذاك النبي القويّ قولاً وفعلاً قدّام الله والشعب كلّه، وكيف أسلمه أحبارنا ورؤساؤنا ليُحكَمَ عليه بالموت، وكيف صلبوه. وكنّا نحن نرجو أن يكون هو مَن سيفدي إسرائيل...» (لو ٢٤: ١٩-٢١).

صليب يسوع علامة «العار»[٢٧] الأقصى. لم يُغالِ بولسُ عندما دعا المسيحَ المصلوبَ «عثارًا لليهود، وحماقةً للأمم» (١ قور ١:٢٣؛ أنظر آ ٢٢؛ غل

٢٥- G. BILLON, «Le scandale de la croix»,, www.bible-service.net.

٢٦- Gerald G. O'COLLINS, «Crucifixion», p. 1207ss.

٢٧- «لنتطلّع إلى رائد الإيمان ومكمّله يسوع، الذي احتمل الصليب بدل الفرح المعدّ له، وازدرى العار، وجلس عن يمين عرش الله» (عب ١٢:٢).

١١:٥). لا شيء في العهد القديم أو في المصادر اليهوديّة الأخرى يوحي بأن المسيح قد يعاني هذا المصير. بالمقابل، صلب إنسان – بعيدًا عن أن يكون مختارًا، وممسوحًا، ومرسلاً من الله – كان يفهم أنه ملعون من الله. بدا غيرُ المؤمنين «على حماقة» (١ قور ١٨:١) لإعلان يسوع المصلوب ابنًا لله، سيّدًا كونيًّا، وآتيًا قاضيًا للعالم. لقد عدّ العار الأقصى لموته صلبًا ضدّ أي نوع من هذه الإعلانات. بعد قرن من بولس، لاحظ يوستينوس الشهيد كم كان بالكلية مهينًا الإقرارُ بالوضع الإلهي لإنسانٍ مصلوب: «يقولون إنّ جنوننا يقوم على واقع أننا نضع إنسانًا مصلوبًا في مرتبة تلي مقامَ الله الذي لا يتبدّل والأزلي، وخالق العالم» (**الدفاع** ١، ١٣، ٤). في وضع ليتورجي أكثر منه دفاعيّ، يعترف ميليتوس السرديّ (توفّي حوالى سنة ١٩٠) أيضًا بـــ«العثار» الغريب للإيمان المسيحي بيسوع المصلوب.

لا شيء أكثر من نشيد فيليـــبي (٦:٢-١١) يعبّر بقوة عن الإعلانات المسيحيّة المتعارضة حول يسوع المصلوب، أكان النشيد موجودًا قبل بولس أم أضافه هو بالذات؛ تُبْرِزُ الجملةُ «حتى الموت على الصليب» (٨:٢) التعارضَ الأقصى بين مجد المسيح (٩:٢-١١)، من جهة، وبين الموت–العار عندما صُلب كعبدٍ، من جهة ثانية.

– «جنون» الصليب

في يسوع المصلوب تتحقق نبوءة أشعيا القائل: «سأبيد حكمة الحكماء، وأزيل فهم الفهماء» (أش ٢٩: ١٤؛ رج ٣٣: ١٨؛ ١٩: ١٢). عندما بشّر بولس في قورنتوس، «ركّز تعليمه على المصلوب»[٢٨]، الذي فيه «كل كنوز الحكمة والعلم» (قول ٢: ٣)؛ لذلك صرّح في ١ قور ١: ١٨ أن «لغة الصليب» هي، في أَعْيُنِ «الهالكين»، «جهالة» و«جنون»؛ ويضاعف تشديده على هذه النقطة في آ ٢٣ حيث يقول إنّ المسيح المصلوب هو «عثار» لليهود، و«جنون» للأمم. لا تعني الكلمة اليونانية mwria التي يستعملها هنا خللاً عقليًّا بحصر المعنى، ولا نقصًا في

٢٨– بولس الفغالي، **رسالة القديس بولس الأولى إلى أهل كورنتوس** (جونيه، ١٩٩٣) ٤١.

الحكمة، بل أكثر من ذلك؛ فكما يوضح يوستينوس الذي، في سبيل أن يصف العثار الذي تسبّبه البشارة المسيحية في العالم القديم، يتكلّم على mania، ويرى سبب هذا في إيمان المسيحيين الذين كانوا ينسبون إلى يسوع المصلوب مقامًا إلهيًّا، ويرون فيه مصدر الخلاص: «نضع إنسانًا مصلوبًا في المقام الثاني بعد الله غير المتحرّك والأبديّ، الله خالق العالم» (**الدفاع** ١، ١٣، ٤).

من أجل إبراز التقارب بين mwria وmania، يمكن الاستعانة بالحكم الأقدم الذي أطلقه وثنيٌّ على المسيحيين، ألا وهو الحاكم الروماني بلينوس الصغير الذي اعتبر أعضاءَ الشيعة الجديدة وكأنّهم مصابون بالجنون. ما صدم بنوع خاص هو أنّ الذي يُكْرَمُ «كإله» كان قد سُمِّرَ على الصليب على يد السلطات الرومانية بسبب جريمة ضد الدولة.

كذلك صديقه كورنيليوس تاسيتوس يتكلم بقساوة أكبر على المسيحيين، فيقول: «يأتي اسمُهم هذا من المسيح الذي، أيام طيباريوس قيصر، أسلمه الحاكم بيلاطس البنطي إلى التعذيب». تعود معرفة تاسيت الدقيقة بالمسيحيين، والاحتقار الذي يكنّه لهم، إلى الأيام التي كان فيه حاكمَ منطقة آسيا، حيث قاضى مسيحيين هناك[٢٩].

ويعتبر سيسيليوس الوثني الرومانيّ، أنّ لدى المسيحيين «تخيّلات نابجة عن تصورات مبلبلة»[٣٠]، تؤدّي بهم إلى «أن يعبدوا مصلوبًا»[٣١]، «مجرمًا وصليبه»[٣٢]. ويضيف قائلاً: «ولكن أنتم، الذين تكرّسون آلهةً من خشب، من المحتمل أنكم تعبدون صلبانًا من خشب، وكأنها أجزاء من آلهتكم»[٣٣].

٢٩- حول علاقة كورنيليوس تاسيتوس بالمسيحيين، رج:

H. FUCHS, «Der Bericht über die Christen in den Annalen des Tacitus», in V. PÖSCHL (éd.), *Tacitus*, WdF 97, 1969, 558-604.

٣٠- Minucius FELIX, *L'Octavius*, 11, 9, cité par M. Hengel, *La crucifixion* (LD 105; Cerf: Paris 1981) 15.

٣١- *Ibidem*.

٣٢- *Ibidem*, p. 16.

٣٣- *Ibidem*, p. 16.

أكثر من ذلك، هناك من اعتبر أنّ روحًا شرّيرًا وراء عبادة الصليب، كما يتّهمهم بذلك بورفيروس، الذي يقول إنهم يعبدون «إلهًا مات على الصليب»، وهم بالتالي في حلف مع أرواح الأموات والأبالسة التي يحرّمها العبريون[٣٤].

والأسوأ أيضًا، استنادًا إلى وثني يورده أرنوب[٣٥]، هو اعتبار إنسان أُعدِم مُعَلَّقًا على الصليب، أنه ما زال حيًّا، ويُكَرَّمُ بالصلوات اليوميّة.

هذه المواقف التي تحتقر المسيحيين بسبب الصليب، والقيامة، وعبادة الصليب، ليست من قبيل الصدفة، لأنّ قَلْبَ البشارة المسيحية الذي يصفه بولس بـــ«كلمة الصليب» (logo" tou staurou)، كان على نقيضٍ، ليس فقط منطق الدولة الرومانية، بل أيضًا النظرةِ الدينية لمجمل العصور القديمة، وخاصة نظرة المثقفين إلى الله. إنّ الاعتقاد أنّ الابن الوحيد لله الواحد والحق، والكائن قبل الدهور، وسيط الخليقة ومخلّص العالم، قد ولد حديثًا في هذه المنطقة الضائعة التي تُدعى الجليل، ابن هذا الشعب الغامض الذين هم اليهود، والأسوأ أيضًا هو أنّه مات موتَ مجرمٍ، الموت على الصليب، ذلكم إيمانٌ لا يمكن اعتباره سوى علامة جنون. كانت آلهة اليونان وروما تتميّز بأنها خالدة، وبالتالي لا شيء يجمع بينها وبين الصليب الذي هو علامة «خزي» (aiscunh، عب ١٢:٢)، وبين «عار العود»، «الخشب العقيم» (panourgikon xulon)[٣٦]، الصليب الذي كان يرعب العبيد. يجدر هنا أن نورد ما حفظه لوقا حول كلمة «عود» (لو ٢٣: ٣١)، حيث قابل يسوع نفسه بـــ«العود الأخضر»[٣٧]، أي البارّ الذي يفلت من نار العقاب، ومع ذلك تحمّل أقسى الآلام.

٣٤- Augustin, *Civitas Dei*, 19, 23 1. 145s, CC.

٣٥- *Adversus nationes*, 1, 36.

٣٦- SÉNÈQUE, *Epistulae morales*, 101, 14; Minucius FELIX, *op.cit*, p. 20.

٣٧- حول «العود الأخضر»، رج بولس الفغالي، **إنجيل لوقا**، الجزء الثالث: **يسوع في أورشليم. الآلام والقيامة** (دراسات بيبلية ١٣، الرابطة الكتابية، لبنان، ١٩٩٦) ٤٣٠.

أما يوسيفوس اليهوديّ، الذي كان مستشارًا لدى تيطوس إبّان حصار أورشليم، والذي كان شاهد عيان للعديد من أعمال الصلب، فيصف الصَلبَ بإيجاز واقتضاب على أنه «أشنع الميتات» (qanatwn ton oiktiston)[٣٨].

لم يكن من السهل على سامعِي بولس تقبّل عبارته، «كلمة الصليب»، خاصّة على اليهود منهم الذين كانوا يرون الرومان ينصبون الصلبان في بلادهم، والذين كانوا بالتأكيد يتذكّرون قول تث ٢١: ٢٣ حول الإنسان الذي يُعَلَّق على خشبة[٣٩]. إنّ مسيحًا مصلوبًا، ابنًا لله كان أم الله، لم يكن ممكنًا أن يكون سوى تناقض في الكلام لأيّ إنسان، يهوديًّا كان، أم يونانيًّا، أو رومانيًّا، أو بربريًّا، يُدعَى إلى الإيمان ببشارة كهذه، بشارة تصدم وغير منطقية.

«**كلمة الصليب**» (logo" tou staurou)

إنّ التفسير الرمزي، والألّيغوري، والكوني، وهو تفسير متأخّر، بالإمكان تَبَيُّنُه بدءًا من إغناطيوس الأنطاكي تقريبًا، لم يعد له الشيء الكثير المشترك مع «كلمة الصليب» (logo" tou staurou) البولسية. فعندما باشر بولس نشاطه الرسوليّ، لم تكن المسيحية الأولى ما ستصبح عليه لاحقًا، أيامَ بلينوس الصغير والشهيد يوستينوس؛ لم تكن عندها سوى شيعة يهودية، مجهولة بالكلية، محصورة في فلسطين وفي المناطق المجاورة. لم يكن مرّ على موت مؤسّسها سوى بضعة سنوات، والذكر الشخصيّ للأحداث التي سبقته وتبعته كان ما زال حيًّا في وسط الجماعة. تدلّ ١ قور ١١: ٢٣ي و١٥: ٣ي (خاصة آ ٦) على أنّ بولس بالذات، بالرغم من «المسافة» الزمنية التي تفصله عن التقليد المتعلّق بيسوع، لم يكن جاهلاً لهذا التقليد. لا يمكن لأحد إنكار الرباط بين بولس والوجه الأرضيّ للمصلوب. لكن هذا يعني بذات الفعل أنّه، بالنسبة إلى بولس ومعاصريه، لم يكن صليب يسوع

٣٨- F. JOSEPHUS, *De Bello Judaico* 7, 203; voir 202ss.

٣٩- رج غل ٣: ١٣، ويوستينوس الذي كتب ما يلي: «لقد أُذِلَّ مَن تدعونه المسيح واحتُقِر، لأنه سقط تحت اللعنة الكبرى المتَضَمَّنَة في شريعة الله. في الواقع، لقد صُلِب...» (**الحوار مع تريفون**، ٣٢: ١).

موضوعًا بنّاءً، رمزيًّا ونظريًّا، بل حقيقة واقعيّة جدًّا تصدم إلى أقصى حدّ، كانت ترخي بثقلها على تبشير الجماعة الأولى. لا عجب من أن تكون جماعة قورنتوس الناشئة قد سعت إلى أن تقطع علاقتها بالمسيح المصلوب، للانطلاق في اختبارات روحية حماسية، وفي التمتّع بإيحاءات سماوية، وتذوّق يقين الخلاص المرتبط بالخفيّات وبالأسرار. بالمقابل، عندما بيّن بولس للجماعة التي كان قد أسّسها أنّ تبشيره بالمسيح المصلوب هو «عثار»[٤٠] ديني لليهود، و«حماقة» لمستمعيه اليونانيين، كان هناك، خلف هذا الاعتراف، اختبار عشرين سنة لأعظم مرسل مسيحي لم يحصد في الغالب سوى السخرية والرفض العنيف عندما كان يبشّر بالرب يسوع الذي كان قد مات كمجرم على شجرة العار. أدّى هذا الاختبار السلبي إلى لاهوت الصليب لدى بولس. إنّ ما دفع هذا الأخير إلى أن يبشّر بـ«كلمة الصليب» (logo" tou staurou) المسبّبة للعثار، هو أن الرسول قد فسّر بها موت يسوع الناصريّ على الصليب، موت ابن الله المتجسّد والربّ، معلنًا أنّ هذا الحدث هو حدث الخلاص الإسكاتولوجي لكل البشر: لقد صالح العالم مع الله «بدم صليبه» (قول ١: ٢٠). وحتى ألم الرسول الشخصيّ ينبغي أن يُفهَم حصريًّا بعلاقة بهذا الحدث التاريخيّ «الفريد» (روم ٦: ١٠، apaqenen efapax). إنّ الخجل والاحتقار اللذين قاساهما الرسول يوضحهما ويُفسّرهما موت يسوع المخزي على الصليب، وليس بالإمكان فصلهما عن الصليب ولا تفسيرهما بمعزل عنه.

أ- الصلب والصليب في رسالة بولس إلى أهل غلاطيا[٤١]

- الصلب واللعنة (غل ٣:١٣)

«لأنه مكتوب: "ملعون كلّ مَن عُلّق على شجرة"» (غل ٣:١٣). يأتي هذا الاستشهاد من تث ٢١:٢٣، الذي يقرأ في السبعينيّة: «لأنه ملعون كل مَن علّق على شجرة». كان تث ٢١:٢٣ في الأصل يشير إلى عادةِ تعليق جثمانِ مجرمٍ ميتٍ

٤٠- «عثار الصليب»، في **معجم اللاهوت الكتابي** (دار المشرق: بيروت ١٩٨٦) ٤٨٣.

٤١- F. MATERNA, *Galatians* (vol. 2, D-G; Sacra Pagina: NY 1992) 120.

على شجرةٍ بهدف إنزالِ العارِ به. بالمقابل، كان ينبغي إنزالُ الجثمانِ قبل هبوط الليل لئلا تتنجّسَ به الأرض. وتشير النصوص التلمودية بمهانة واحتقار إلى «تعليق» يسوع، ودَعَتْهُ «المُعَلَّق»[٤٢] على خشبة. مع العهد الجديد، فُهم «التعليق على شجرة» أنه صَلْب (أع ٥:٣٠). مات يسوع، بالتالي، تحت لعنةٍ، لأنه صُلب، أي معلَّقًا على شجرة. يطبّق بولس الاستشهادَ على يسوع، حاذفًا الجملة «ملعون من الله»، ليبيّن أنه مات تحت لعنة الشريعة كي يحرّر الذين هم تحت لعنة الشريعة (غل ٣:١٠).

– صليب المسيح

«... يُلزمونكم أن تختتنوا، وذلك فقط لئلا يُضطَّهدوا من أجل صليب المسيح» (غل ٦:١٢).

تفسّر هذه الجملة دافعَ المُبلبلين: يريدون أن يتلافَوا الاضطهاد. يذكّر الفعل «اضطهد» (διωκονται) بسؤالِ بولس في غل ٥:١١: إذا كان بولسُ ما زال يبشّر بالختان، فلماذا يُضطَهَد؟ مع هذا، من الصعب تفسيرُ سببِ اضطهادِ المبلبلين إذا بقيَ مرتدُّو بولس الغلاطيّون غيرَ مختونين. من المحتمل أن يكون بولس يطبّق اختبارَه الشخصيَّ على المبلبلين: إذا كانوا يبشّرون بإنجيلٍ حرٍّ من التوراة، فسيختبرون مثلَه الاضطهادَ من قِبَلِ مسيحيين يهود. في فل ٣:١٨ يعود بولس إلى أولئك الذين يزعجون أهلَ فيليبّي على أنهم «أعداءُ صليبِ المسيح». هنا، ومن المحتمل في رسالة فيليبي، يرمز الصليبُ إلى ما فعله اللهُ بالمَسيح: الصليب هو مضمونُ الإنجيلِ الحُرِّ من الشريعة.

«أمّا أنا فحاشا لي أن أفتخرَ إلاّ بصليبِ ربِّنا يسوعَ المسيحِ، الذي به صُلِبَ العالَمُ لي، وأنا صُلِبْتُ للعالم» (غل ٦:١٤).

على تعارضٍ مع المبلبلين الذين يفتخرون بعلامة الختان، يفتخر بولسُ

٤٢– «تَلُويْ»، كما في **التلمود البابلي، سنهدرين** ٤٣أ.

بالصليب. الافتخار (kaucaomai) هو موضوع هامّ في كتابات بولس. البشريّةُ مُجَرَّبةٌ بالافتخار أو بتمجيد ذاتِها بإنجازاتها الخاصة. يستبعد بولس هكذا افتخار (١ قو ١:٢٩؛ ٣:٢١). أولئك الذين يفتخرون يجب أن يفتخروا بالرب (١قور ١:٢١؛ ٢قور ١٠:١٧؛ فل ٣:٣)، أو بضعفِهم (٢ قور ١١:٣٠؛ ١٢:٥ و٩) الذي يصلح لإبراز قوة الله. الافتخارُ الأصيلُ هو بالمسيح المصلوب (١قور ٢:٢). في المسيح الإنسان المصلوب، وفي كلّ مَن يحمل صليبه ويتبعه، «تكمل القوة في الضعف» (٢ قور ١٢: ٩). الصليب قوة في الضعف.

تدلّ كلمة «عالَم» ("kosmo) على الوقت الحاضر المُعادي لله، والمُستَعْبَدِ للخطيئة، وعلى خلاف ما يخصّ مملكةَ الله. كان اليهوديُّ والأمميُّ مستعبدَين لأركانِ العالَم» (غل ٤:١-١١، خاصة آ ٣)، لكنّ المسيحَ مات ليخلّصَ البشريّةَ من «الدهر الحاضر الشرّير» (١:٤). يبدو أن ما يسبقُ حرف الجرّ «به» (di oJu) هو صليبُ المسيح وليس المسيح. بكون بولس صُلِبَ مع المسيح (٢:١٩-٢٠)، فإنّه مات عن الدهر الحاضر، والدهرُ الحاضرُ لم يَعُدْ له ما يطالبُه به. أنظر روم ٦:١-١١، خاصة آ ١١: «كذلك أنتم أيضًا إحسَبُوا أنفسَكم أمواتًا عن الخطيئة، أحياءً لله في المسيح يسوع».

– النقاط الرئيسيّة في برهان بولس (غل ٦:١٤-١٧)

بعد أن عرض بولس دافع المبلبلين، يستفيد من الفرصة في هذه الآيات الأخيرة من الرسالة إلى أهل غلاطيا لاختصار النقاط الرئيسيّة من برهانه:

١- هو يفتخر بصليب يسوع المسيح؛

٢- لقد جاء المسيح بخليقة جديدة تهدم جدرانَ الانقسامِ التي جرحتِ الخليقةَ القديمة؛

٣- يحمل بولس سمات المسيح.

شرح هذه النقاط الثلاث:

١- تشدّد النقطة الأولى عند بولس على الفرق بينه وبين المبلبلين. في حين أنهم يفتخرون بالسِّمَةِ الجسميّةِ للختان، يفتخر الرسولُ بصليب المسيح. وفي حين أنّ الافتخار بصليب المسيح أصبح علامةً[٤٣] رسميةً للمسيحية[٤٤]، على القرّاء أن يتذكّروا باستمرار كيف كان وَقْعُ كلمات بولس التي تصدم قبل ألفي سنة. كان الصلب عادةً محفوظًا للعبيد، وللمجرمين، وللمتمرّدين السياسيين. وكان، في العالم اليوناني-الروماني، شكلَ العقابِ الأكثرِ إهانةً وإذلالاً، وعلامةَ الوَهْنِ والهزيمة. بالرغم من هذا الصُّدودِ الثقافيِّ للصليب، يفتخر بولسُ به كعلامةِ قدرةِ اللهِ وخلاصِه.

٢- إضافةً إلى ذلك، هو يعلن أنه بالصليب قد صُلب هو للعالم، وأنَّ العالَمَ قد صُلب له. هذه الجملة هي طريقة ملفتة للقول بأنَّ هذا الدهرَ، الذي يقفُ بتعارضٍ حادٍّ في وجهِ الله، لم يَعدْ له أيُّ وجودٍ حقيقيٍّ بالنسبة إلى بولس، ولا يريدُ هذا الدهرُ أيَّ شيءٍ مشتَركٍ مع الرسول. مات بولسُ ومات هذا الدهرُ، الواحدُ للآخَر، لأنّ بولسَ، على خلافِ هذا الدهر، قد اعتنقَ طوعًا صليبَ المسيح.

٣- نقطة بولس الثالثة هي تذكير الغلاطيين أنه تألم لأجل الإنجيل الحرّ من التوراة، الذي كان قد بشّرهم به. على نقيض المبلبلين، وُسِمَ بولسُ بآلامِ خدمتِه الرسوليّة. حول لائحة مفصّلة بهذه الآلام، أنظر ٢قور ١١:٢٣-٢٩. الآلام التي قاساها بولس في عمله الرسولي هي الدليلُ الحسّيُّ والبيِّنُ لـ**انصلابه**[٤٥] مع المسيح. وعلى نقيض المُبلبِلين، يحقّ لبولسَ أن يفتخرَ لأنّه تألّمَ من أجل المسيح.

٤٣- أنظر حول هذا الموضوع: Yves-Marie BLANCHARD, «Le signe de la Croix», *Biblia* 37 (2005) 6.

٤٤- «الصليب علامة المسيحي»، في **معجم اللاهوت الكتابي** (دار المشرق: بيروت ١٩٨٦) ٤٨٤.

٤٥- «لقد صُلِبتُ مع المسيح» (غل ٢: ١٩).

نستنتج

على الصليب «مات يسوع»! هذا الواقع هو تاريخي؛ «لأجل خطايانا»، هذا هو معنى ما حصل. بأي معنى «مات يسوع لأجل خطايانا»؟ كان هناك شيءٌ من الشركة بين الإنسان وخالقه. حصل شيء هدّم هذه العلاقات الأبوية. لم يبتعد الإنسان عن الله وحسب، بل أقام أيضًا حاجزًا يفصله عن خالقه. لا يمكن أيّ مجهود بشري أن يزيح هذا الحاجز: إنها الخطيئة العبء التي تُبعد عن الله.

وبما أنه لا يمكن لأيِّ إنسانٍ أن يهدمَ حاجز العداوة هذا، فلا يمكن أيضًا أن تأتي النجاةُ إلا من الله وحده، الذي يأخذ هذه المبادرة، ويخلّص الإنسان. تفيدنا الأسفار المقدّسة عمّا فعله الله: لقد أرسل ابنَه إلى الأرض كي يرفعَ الحاجز، ولكي يجعل المصالحةَ بين الله والإنسان ممكنةً. بموت يسوع على الصليب لأجل خطايانا، رفع الحاجز الفاصلَ الإنسانَ عن الله، محقِّقًا لنا ما لم يكن باستطاعتنا أن نقوم به، وصنع هذا تتميمًا لإرادة الآب[٤٦].

٤٦- إقرأ في هذا المجال: ريمون الهاشم، «الصلب في أسبابه وأهدافه»، في: مجموعة محاضرين، **يسوع التاريخي** (دراسات بيبلية ٢٩، الرابطة الكتابية، لبنان، ٢٠٠٥) ٤٧٣-٤٨٠.

مراجع

أبي صابر جورج، إغناطيوس الأنطاكي، **الرسائل إلى أهل إزمير، أهل أفسس، الترالليانيين، والرومانيين.**

تابت يوحنا، **البيت غازو الماروني، ألحان للصليب** (منشورات معهد الليتورجيا في جامعة الروح القدس، الكسليك، لبنان، ٢٠٠٥).

تلمود (الـ) البابلي، سنهدرين.

حلاّق سامي، **الصليب والصلب قبل الميلاد وبعده** (بيروت، ١٩٩٥).

حموي الأب صبحي، **دليل عربي يوناني إلى ألفاظ العهد الجديد** (دار المشرق: بيروت ١٩٩٣).

راهنر كارل وفورغريملر هربرت (تعريب المطران عبده خليفة)، **معجم اللاهوت الكاثوليكي** (دار المشرق: بيروت ١٩٨٥).

شحيمة (الـ)، الزمن العادي (منشورات معهد الليتورجيا والعلوم الموسيقية، جامعة الروح القدس، الكسليك، لبنان، ١٩٨٢): «صلاة عيد الصليب».

فغالي (الـ) بولس، **رسالة القديس بولس الأولى إلى أهل كورنتوس** (جونيه، ١٩٩٣).

ـــــــــــ، **إنجيل لوقا**، الجزء الثالث: **يسوع في أورشليم. الآلام والقيامة** (دراسات بيبلية ١٣، الرابطة الكتابية، لبنان، ١٩٩٦).

ـــــــــــ، **درب الصليب درب القيامة** (القراءة الربّيّة ١٨، الرابطة الكتابية، لبنان، ٢٠٠٥).

معجم اللاهوت الكتابي (دار المشرق: بيروت ١٩٨٦).

هاشم (الـ) ريمون، «الصلب في أسبابه وأهدافه»، في: مجموعة محاضرين، **يسوع التاريخي** (دراسات بيبلية ٢٩، الرابطة الكتابية، لبنان، ٢٠٠٥).

Anchor Bible Dictionary, vol. 1, A-C. (Sacra Pagina: NY 1992).

BAUER Walter, *A Greek-English Lexicon of the New Testament and Early Other Christian Literature* (The University of Chicago Press: Chicago and London 1979).

BILLON G., «Le scandale de la croix», www.bible-service.net

BLANCHARD Yves-Marie, «Le signe de la Croix», *Biblia* 37 (2005).

BRAUN F.-M., *La mère des fidèles. Essai de théologie johannique* (Tournai 1953).

DE LA POTTERIE I., «Et à partir de cette heure, le Disciple l'accueillit dans son intimité» (Jn 19,27b)», *Marianum* 42 (1980) 84-125.

FEUILLET A., «Les adieux du Christ à sa mère (Jn 19,25-27) et la maternité spirituelle de Marie», *NRT* 86 (1964) 469-489.

HENGEL M., *La crucifixion* (LD 105; Cerf: Paris 1981).

JOSEPHUS F., *De Bello Judaico*.

MATERNA F., *Galatians* (Sacra Pagina: USA 1992).

MOLLAT D., «L'évangile selon St. Jean», fasc. de la *Bible de Jérusalem*.

MOMMSEN Th., *Crucifixion in the Ancient World and the Folly of the Message of the Cross* (London 1977).

MORRIS L., *The Cross in the New Testament* (1965).

O'COLLINS Gerald G., «Crucifixion», *Anchor Bible Dictionary*, vol. 1, A-C. (Doubleday: NY 1992) 1207-1210.

REGARD P.F., «Le titre de la Croix d'après les évangiles», *Rev. Archéol.*, 5^{e} sér. 28, 1928, 95-105.

SCHNEIDER J., *ThWNT* VII, 1971, p. 573, n. 15.

TAYLOR V., *The Cross of Christ* (1956).

TERNANT Paul, *Le Christ est mort pour nous tous. Du serviteur Israël au serviteur Jésus* (Cerf, Paris 1993).

THYES A., «Jean 19,25-27 et la maternité spirituelle de Marie»; *Marianum* 18 (1956) 80-117.

VANHOYE A., DUQUOC Ch. et DE LA POTTERIE I., *La Passion selon les quatre Évangiles* (coll. Lire la Bible, 55; Cerf: Paris 1981).